فضرورة الاعتراف الاميركي بالحقوق الفلسطينية ليست، في العادة، بعبارة مألوفة باقلام اميركية. كما انه ليس من المألوف ان يدعو اميركي بلاده الى الاهتمام بالمصالح والحساسيات الفلسطينية؛ بل على عكس ذلك، تعوّدنا ان يُنظر الينا من واشنطن بشكل أحادي، مرة كورقة من الاوراق في صراع الشرق والغرب، وأخرى في ممالأة اسرائيل على تنفيذ مخططاتها التوسّعية.

الفصلان العاشر والحادي عشر سلّطا الضوء قوياً على التاريخ السياسي لقطاع غزة، والوضع هناك في ظل الاحتلال الاسرائيلي. ومن حسناتهما تزويد القارىء بمعطيات تكاد تكون شاملة عن الواقع المعاش في القطاع، الذي غالباً ما يشار اليه بأنه يأتي في المرتبة الثانية في أي حل، بعد الضفة الفلسطينية (ص ٢٢٣ ـ ٢٥٤).

درست ليش وكذلك تسلر، كل على حدة، في الفصلين الاخيرين من الكتاب، المرحلة التي سبقت اندلاع الانتفاضة الفلسطينية في الارض المحتلة، مع اهتمام كبير بالتفاصيل. ومن السطور المفيدة جداً، كتبت ليش: «ان الطرفين، الفلسطيني والاسرائيلي، بلغا درجة لم يعد التعايش معها ممكناً» (ص ٢٦٧).

كيف وصلت ليش الى هذه الخلاصة؟ المحطة الاولى هي السياسة الاسرائيلية الراهنة القائمة على المحافظة على الوضع الراهن، أي دوام الاحتلال، واقامة المستوطنات اليهودية في الارض المحتلة، والرفض الاسرائيلي للبحث عن أي حل جدي. امّا المحطة الثانية، فهي تصاعد حدة المواجهة الفلسطينية لهذه السياسة (ص ٢٥٥ ـ ٢٥٨).

امّا تسلر، فقد أثار في الذهن مواضيع وشؤوناً هيّ في صلب العلاقة الفلسطينية ـ الاسرائيلية، ايّاً يكن المعنى المرغوب في واو العطف التي تربطها. وأشار، بصفة خاصة، الى الاهمية التي تكتسبها عملية «المقايضة» في اقرار سلام دائم وثابت في المنطقة.

كان لا بدّ، في هذه العجالة، ان نظلم أكثر من مبحث، إنْ بعدم ذكره، أو بتلخيص عمل امتد على عشرات الصفحات بجملة واحدة. ولكن ما العمل عندما تتداخل المواضيع، ويغيب، احياناً، النقاش الحي؟

هنا، لا بدّ من الاشارة الى ان الكتاب أُصدر في وقت غير مناسب؛ اذ يظهر من مجمل المساهمات فيه ان السطور الاخيرة من كل مساهمة قد كتبت في الفترة ما بين ١٩٨٠ و١٩٨٦. لكن الاحداث البعيدة الاثر التي جرت منذ ذلك التاريخ كانت متعددة ومتنافسة في الاهمية: اندلاع الانتفاضة في الارض المحتلة؛ والقرار الاردني بفك الارتباط بالضفة الغربية؛ وعودة مصر رسمياً الى الصف العربي؛ واعلان وثيقة الاستقلال الفلسطيني؛ والحوار الاميركي ـ الفلسطيني؛ وانهيار حكومة الائتلاف الاسرائيلية. وفوق ذلك كله بروز قوى اقليمية عربية في معادلة النزاع؛ اضافة الى التغيّرات العنيفة التي شهدها النظام الدولي بمجمله، بعد احداث اوروبا الشرقية.

ان هذه الاحداث، وغيرها، قد غيّرت ملامح الصورة الاقليمية الى حدّ بعيد. هذا لا ينقص من قيمة الكتاب بقدر ما يعطيه وظيفة تاريخية أكثر منها سياسية آنية. واذا كان الامر كذلك، فليس من الاهمية بمكان الاشارة الى ان الكتاب جاء خلواً من أي استشراف مستقبلي، وخلواً من أية استنتاجات ثاقبة.

على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من شطحات غير مبررة، عقلانياً، يبقى الكتاب هامّاً، ليس لطبيعته التاريخية فقط، وانما لأن في طيّاته، أيضاً، بعض من التفسير للسياسة الاسرائيلية التي تتجلّى، اليوم، أمام ناظرينا. والحاجة الى فهم واضح لهذا التفسير امسّ من أي وقت مضى.

د. نبيل حيدري